الفصل الثاني

النواة التوحيدية للنظام المعرفي الإسلامي لدى الفاروقي[1]

السيد عمر[2]

لباب هذه المقاربة المعرفية هو: إطلالة خاطفة على خارطة النواة التوحيدية للنظام المعرفي الإسلامي كما بينها العلامة الراحل اسماعيل راجي الفاروقي. ويمكن القول بأن جوهر مشروعه الفكري متضمن في كتابه الذي صدر بالإنجليزية، ومنَّ الله تعالى عليّ بتعريبه، الموسوم: "التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة". وما مؤلفاته الأخرى إلا روافد شارحة له.

ولا تعدو هذه الدراسة أن تكون مقاربة أولية غايتها توسيع دائرة الوعي بمضمون هذا المرجع المعرفي الثقيل الوزن. ونحن فيها نلقي الضوء منه على المعالم الكبرى لتلك النواة التوحيدية، مع التنبيه على عُقَدِها منه ومن روافدها بمؤلفات الفاروقي الأخرى.

وهذا المرجع في تقديري نسيج فريد وحده، جدير بأن تحوله الجماعة العلمية الإسلامية من مجرد ناظم لفكر مؤلفه، إلى دليل عمل إرشادي ناظم لجدول أعمالها البحثي الآني والمستقبلي، على صعيدي: وصف حالة الأمة، وتحديد وصفة تعافيها.

ذلك أنَّ سفر "التوحيد" يحفر في أسئلة معرفية كبرى، في طليعتها: ما هي علة تحول أمتنا باطراد على مدى القرون الخمسة الأخيرة من وضعية الأمة الشاهدة

(1) Al-Faruqi, Ismail Raji. Al-Tawhid: its Implications for thought and life. Herndon, Va: IIIT, Third Edition 1416/1995.

(٢) دكتوراه الفلسفة في العلوم السياسية من جامعة القاهرة عام ١٩٩١م، رئيس قسم العلوم السياسية – جامعة العلوم التطبيقية/ مملكة البحرين. البريد الإلكتروني: dr_sayedomer@yahoo.com.

obeikan.com

صاحبة الريادة في العطاء الحضاري على المستوى الإنساني العالمي، إلى وضعية الأمة المتكالب عليها، السائرة على خط التراجع في إسهامها الحضاري؟ وما هو سر إخفاق مساع كثيرة بذلتها الأمة من أجل استعادة عافيتها؟ وما المخرج من تلك العلة في ضوء الوقوف على ذلك السر؟ وزبدة الإجابة أنَّ موقف الأمة من التوحيد الخالص هو المتغير المستقل، وما عداه هو المتغير التابع على الدوام، بالنسبة لحالتها ولمصير مساعي الإصلاح فيها، في كافة مجالات الحياة والفكر، وأنَّ إرادة السبق الحضاري مرهونة بتعميق الإيمان.

والفرضية المعرفية الأم التي يسبر الفاروقي أغوارها في إجابته المؤسسية البديعة على تلك الأسئلة هي: رد إخفاق مساعي الإصلاح في الأمة إلى ابتلائها بآفة: تعلية البعد المادي والمعايير المستعارة، على البعد الروحي، والغفلة عن أن شرط التعافي وسبيلَه الوحيد هو استعادة قابلية تغيير ما بنفسها باتجاه التوحيد الخالص، بشقيه: التخلية المحررة لعقلها ولحياتها من كافة دواعي الفساد والخلل، والتحلية المؤسسة لاستعادة رسالتها في الصلاح والإصلاح.[1]

ويقيم الفاروقي عبر اللجوء المباشر المكثف للقرآن الكريم، والتحليل المقارن بين النموذج المعرفي التوحيدي الإسلامي والنماذج المعرفية المقابلة، واستقراء الماضي وتحليل الحاضر واستشراف المستقبل، الحجة الدامغة على أن التوحيد هو النواة الوحيدة الصالحة لأن تكون ناظما لخلافة الإنسان ولحمله الأمانة في الأرض. ويبرهن على أن تلك النواة هي: جوهر الخبرة الدينية، وهي لباب الإسلام، وهي مبدأ كل من: الحضارة، والتاريخ، والمعرفة، والغيب، والأخلاق، والنظام الاجتماعي، والأمة، والأسرة، والنظام السياسي، والنظام الاقتصادي، والنظام العالمي، والنظام الجمالي.

ولن تتعدى حدود هذه الدراسة تقديم وصف بالغ الإيجاز لخيوط النسيج

(١) الفاروقي، إسماعيل راجي. **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، ترجمة: السيد عمر، قيد النشر بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص٣-٤.

التوحيدي الثلاثة عشر سالفة الذكر، كما نسجها منوال العلامة الفاروقي، ثم نُقَفِّي عليها بخاتمة تتعلق برصد ميزان حساب إنجاز الجماعة العلمية في تعاطيها والقيام بحقها المعرفي.

أوّلاً: التوحيد بوصفه جوهر الخبرة الدينية

تتمثل خلاصة الخبرة الدينية الإسلامية في أمرين: التأكيد على المفارقة المطلقة بين الخالق والمخلوق، واستحضار البشرية الدائم للمعية الإلهية، بما أنَّ الإنسان كائن عابد بالضرورة، ومنتهى كل وسائله وغاياته هو طاعة الإرادة الإلهية التكليفية، المبنية على اختياره الحر المسؤول.

وتلخص العبارة الدالة على الركن الأول من الإسلام (لا إله إلا الله)، محتوى الكون كله، والإسلام كله. فهي جماع السلام الإسلامي التوحيدي الجامع، الذي به يزهق لاهوت الخلاص، ويتأسس ناموس توجيه حركة التاريخ باتجاه الفلاح الحر المسؤول، في كون محكم له غاية، على يد أمة متناغمة، تجمعها بكل ما في الوجود من مخلوقات علاقةُ تسبيحٍ مشترك، والتزام بمنهج رباني منزل، هو الميزان الذي ينبغي على الإنسان أن يعاير به علاقته بربه وببني جنسه وبغيره من المخلوقات. وكل ما عداه هو في موضع الموزون به. فإنَّ التزم الإنسان بكل تكويناته وكياناته، بالسعي إلى إعادة تشكيل كل ما هو مسخر له وفق أمر الله التكليفي قدر استطاعته، فإنَّ آفاق فلاح لا متناهيةٍ تنفتح أمامه. والعكس صحيح.

ويجلِّي الفاروقي تلك الخبرة الدينية على مستويين: تجاوز ما توصل إليه الفلاسفة، بما فيهم الفلاسفة المسلمون، بخصوص نظام الكون على نحو يسد منافذ المغالاة في علاقة السببية، بما يجمع بين إطلاقية المشيئة الإلهية وفاعلية السنن الإلهية، ويحرر البشرية من المفاهيم المشوشة للعلاقة بين الخالق والمخلوق، ويعيد إلى ذاكرتها مجدداً المبادئ الخمسة للرؤية الحنيفية للعالم، وهي: الثنائية القائمة على المفارقة المطلقة بين نظام الخالق ونظام المخلوقات،

والتصورية المؤسسة على قابليات الإنسان الممكنة له من فهم ما يستطيع به حمل أمانة التكليف، بالوحي والعقل وملاحظة السنن الكونية الثابتة، وغائية الكون، والمسؤولية والمحاسبة، والقدرة الإنسانية على الفعل الأخلاقي، في طبيعة مسخرة قابلة لإعادة التشكيل.

وهذه الخبرة هي الأصل الثابت، وما يخالفها هو مجرد انحراف عارض. وهي وحدها طوق النجاة للبشرية، من أنساق معرفية مغايرة توقعها في الفتنة بنفسها تارة، وبالطبيعة تارة أخرى. وتشوش العلاقة بين الأسباب كتابع، وبين الإرادة الإلهية المطلقة كمتبوع.

ولا يتمثل الإسهام الرئيس للخبرة الدينية الإسلامية -على ضوء هذا الطرح المعرفي- في بناء وعي الإنسان بوجود رب له وللكون، بل في تطهير وعيه من أدران الشرك الصريح والخفي، ومن المفاهيم الزائغة مثل: الأب والابن والمخلص، وأسطورة قابلية المسافة بين الخالق والمخلوق للتجسير.

ويقوم العمران الإنساني في الأرض وفق تلك الخبرة على دعامتين: معيارية إلهية المصدر مفارقة بالمطلق، وذات إنسانية فردية وجماعية منظومة بتلك المعيارية باختيار حر مسؤول. والانحراف عن تلك المعيارية أمر وارد، حالة اتباع الهوى والشيطان، والاستقامة على الطريقة في حمل الأمانة ممكن هو الآخر حالة الاعتصام بحبل الله.

وجوهر الأمانة التي حملها الإنسان هو الحفاظ على فطرته السوية التي فطره الله عليها، واستعادتها، وإثراؤها، بنظم حريته بالمنهج الرباني المنزل. وما الحياة كلها إلا ساحة لإنجاز أخلاقي منقطع النظير على قدر التزام تلك المعيارية الرأسية المفارقة بحفظ الأمانة، أو لفساد وبوار على قدر الزيغ عنها وتضييعها. ورسالة الإنسان في هذه الحياة هي: ملء الوجود بقيم الفعل الأخلاقي الحر المسؤول، التي ينفرد بها، المتجاوزة للقيم الأولية الطبيعية المحكومة بسنن كونية لا دخل له فيها، وللقيم الوسائلية النفعية التي يشاطره فيها غيره من المخلوقات، والتي

لا يتجاوز مردودها النفع في هذه الحياة الدنيا.

والإنسان مخلوق مؤهل للقيام بتلك الوظيفة بفطرته وبحواسه وبالوحي المنزل. والحياة الدنيا ليست واقعاً يسعى الإنسان إلى الخلاص منه، بل هي ساحة يحقق فيها فلاحه بفعله الأخلاقي، وليس بفعل غيره.[1]

ثانياً: التوحيد بوصفه جوهر الحضارة

التوحيد هو نواة الحضارة الإنسانية الحقة. وتختلف مقومات الوجود شكلاً ومضموناً حين يكون ناظمها هو التوحيد، عنها حين يكون لها أي ناظم غيره. وهو وحده طوق تحرير البشرية من جريرة التأويل اليهودي لمفهوم (الإله) على نحو حرف الكلم عن مواضعه، وأفرخ اختلاق المسيحيين لمقولة: الإنسان الإله.

وينقد الفاروقي، بل ينقض، ذلك التأويل، وذاك الإسقاط النابع منه، مبيناً أنَّ الإنسان مفطور على التوحيد، وأنَّ الشرك بكل صوره داء عارض، ونتاج لفساد نظم التربية، وللتأويل الخاطئ عبر التاريخ.

ومحور الإضاءة المعرفية التي يقدمها الفاروقي هنا أن التوحيد هو الجوهر المعرفي للحضارة، وهو خميرة التأثير عليها شكلاً ومضموناً. ويدلف من ذلك إلى بيان خبرة الزلل اليهودي المسيحي في تصور الذات الإلهية، ويسلط الضوء على اجتناب الخبرة الإسلامية له بإبداع الفنون الإسلامية لشواهد النفي المطلق لأي شبهة شبه بين الذات الإلهية والمخلوقات، وحفظ لغة القرآن الكريم، وتعرية الآلهة الموهومة، وإخراج العالم من حالة الجمود والشخصنة والتشيؤ التي كان قد تردى فيها، باستعادة الوعي بكون الخليقة مادة ينبغي تحقيق الإرادة الإلهية فيها، وبأنه لا يوجد في الحياة مأزق لا يستطيع الإنسان أن يخلص نفسه منه

(١) المرجع السابق، ص٣٤-٥٤. انظر أيضاً:
- الفاروقي، إسماعيل راجي، والفاروقي، لويس لمياء. **أطلس الحضارة الإسلامية**، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، مراجعة: رياض نور الله، الرياض: مكتبة العبيكان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦م، ص٩٤-١٠٩.

بنفسه، وبأنَّ الخير الواجب التحقيق هو: الإرادة الإلهية، التي هي واحدة بالنسبة لكافة المخلوقات.

ومن هذا الجذر التأسيسي يجلِّي الفاروقي الكيفية التي أصيبت بها أمتنا بغبار الشرك من جهة، والسر في تفوق جهاز مناعتها الحضارية ضده بالقياس بغيرها من الأمم، وفي قابليتها للتخلص منه من جهة أخرى. وباب إصابتها بالغبار هو التشبه بثقافة أمم مشوبة به دخلت في الإسلام أفواجاً. وسر قوة المناعة لديها هو الحفاظ على اللغة العربية، وعلى كتابة القرآن بها، واعتبار كل ما يكتب عنه بغيرها مجرد شروح له. فحفظ عربية القرآن كان ولا يزال، هو أساس مناعة تصور أمتنا لرسالة الإنسان على الأرض، ولشبكة علاقاته بكل ما بالكون. وبه نجت أمتنا من الفوضى المفاهيمية التي وقعت فيها أمم أخرى من جراء كتابة الوحي المنزل عليها، بغير اللغة التي تنزل بها.

والكون وفق هذه الرؤية التوحيدية مثال للكمال، لا موضع لوصمه بالخطيئة والمادية، ولا للسعي لمخلص خارجي للإنسان منه. والإنسان محكوم شأن غيره من المخلوقات بالمشيئة التكوينية. إلا أنَّه يفترق عن غيره من المخلوقات في اختصاصه بوظيفة كونية أخلاقية حرة مسؤولة.[1]

ثالثاً: التوحيد مبدأ التاريخ

بؤرة هذا الرافد من روافد الرؤية التوحيدية هي الجمع بين أخلاقية النية وأخلاقية العمل، ومسؤولية الإنسان عن صنع التاريخ في هذه الحياة الدنيا بالسعي إلى الفلاح المجسد للمطلق قدر استطاعته، بحيث تصير الآخرة بمثابة ذروة أخلاقية، المصيرُ فيها ترجمةٌ لدرجة حمله أمانة خلافته في الأرض.

وتتجاوز تلك الصورة التاريخ، والمادية المظهرية اليهودية، والمسيحية

(١) الفاروقي، **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص٥٥-٧٨. وحول جوهر الحضارة الإسلامية والتوحيد بوصفة رؤية للعالم، انظر:
- الفاروقي، **أطلس الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص١٣١-١٥٥.

الروحية الغنوصية التي تستبعد قيام حياة أخلاقية حقة على هذه الأرض. فالتاريخ يقوم على إرادة إنسانية أخلاقية حرة ثلاثية الأركان: إجماع النية، والقدرة، والعمل.

وهذا المنظور الإسلامي للتاريخ مغاير تماماً للمنظورين المسيحي واليهودي؛ لاختلاف مصدره عن مصدريهما. فبينما يتلقى المسلمون تصورهم للحياة الدنيا وما بعدها من القرآن الكريم، يتلقاها أهل الكتاب من تأويلاتهم للتوراة والإنجيل.

ويمثل التاريخ في المنظورين اليهودي والمسيحي علاقة بين مملكة دنيوية خاصة بالهوى والجسد والشيطان والنفس، ومملكة إلهية. أما في المنظور الإسلامي فيتعلق التاريخ بمملكة واحدة على الأرض، تمثل دار عمل، ومسرحاً لتجسيد الإرادة الإلهية فيها بزمانها ومكانها بفعل إنساني حر مسؤول.

ولا موضع في هذا التصور الإسلامي للرهبانية، ولا لتمركز الإنسان الأخلاقي حول نفسه. ولا وزن لقيم شخصية، ما لم تكن سبباً في ترقية نوعية الحياة الإنسانية للغير، بدليل الانتقال الفوري من لحظة (اقرأ) إلى لحظة (البلاغ المبين) والهدي النبوي الناهي عن الفعل الأخلاقي المنعزل عن المجتمع.[1]

رابعاً: التوحيد مبدأ المعرفة

ينقض الفاروقي في هذا المقام فرية الزعم بأنَّ كل الفكر الديني قائم على غير برهان. ويعرِّي ما لحق بمفهومي: العقيدة والإيمان من تشويه في الخبرة المسيحية الحديثة.

فالتوحيد مبدأ منهجي، يحرر البشرية من العبث الغربي بمفهومي: العقيدة والإيمان. ولا موضع في التوحيد، بوصفه مبدأ المعرفة، للنزعة الشكوكية التي روجت العلمانية التجريبية الوضعية لها، ولا للإيمان غير المؤسس على دليل، الذي دعت إليه الكنيسة. فلقد حوّل الغرب مفهوم الإيمان المرادف لليقين، إلى

(١) الفاروقي، **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص٧٩-٨٤.

معنى: الاشتباه والشك والاحتمال، والقطيعة بين مفهوم العقل ومفهوم الوحي المنزل، وحصر العقل في تأويلات الكنيسة، وفيما هو تجريبي ملموس.

وعلى العكس من ذلك، فإنَّ الإيمان الإسلامي مقولة معرفية مبنية على بيِّنة عقلانية، تقوم على حقيقة يصل العقل إلى اليقين بها، جوهرها هو: وحدة الحق والحقيقة والخالق، ومرتكزها هو: رفض كل ما لا يتمشى مع الحقيقة، ونفى التناقض النهائى، والانفتاح الدائم على دليل المخالفة، وعلى الدليل الجديد. ومن أهم ما يقرره الفاروقي في هذا المقام أنه لا تناقض بين الوحي والعقل السوي المنفتح على دليل المخالفة، وعلى الدليل الجديد، المتجنب للوقوف عند ظاهر التناقض.

ويحمي هذا المبدأ العقل الإنساني من التكلس ومن الغرور والتعصب النسبيين، ويؤهله للوعي بضرورة التسامح المعرفي بإحسان الظن بالله بوصفه المصدر الأسمى للمعرفة الكاملة الشاملة، وللخير في الوجود، وبالحاجة إلى التفاؤل المعرفي المؤسس على أنَّ أصل الأمور هو الإباحة والخيرية، عدا المنصوص حصراً على تحريمه منها.

ومن بين مقومات مبدأ التفاؤل المعرفي: اليسر الذي يقبل الإنسان معه الدليل الحاضر إلى أن يثبت زيفه، والوعي بضرورة التخلص من الإصر والأغلال، والتسليم بوحدة دين الله تعالى، وبوجوب الدراسة المقارنة للأديان، بغية التمييز بين ما هو أصيل فيها، وما هو دخيل عليها ناجم من سوء التأويل.[1]

---

(١) المرجع السابق، ص٨٦-١٠١. وللمزيد من التفصيلات حول أساسيات بناء المعرفة على التوحيد، انظر:

- الفاروقي، **أطلس الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٢٣٧-٢٤٢.
- الفاروقي، إسماعيل راجي. **أسلمة المعرفة: المبادئ العامة وخطة العمل**، ترجمة: عبد الوارث سعيد، الكويت: دار البحوث العلمية، ١٩٨٢م، ص١-٨.
- الفاروقي، اسماعيل راجي. **صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية**، رسائل إسلامية المعرفة ٥، الرياض: الدار العالمية للكتاب.

خامسا: التوحيد مبدأ الغيب

يمهد الفاروقي لتأسيس حقيقة كون التوحيد مبدأ للغيب بتفكيك المنظورين الهندوسي والمسيحي للغيب مبيناً سلبيتهما، في مقابل الرؤية الإسلامية للطبيعة ككينونة متصفة بالنظام والهدفية والخيرية. ثم يبين أن العلم لا يتطلب نفي فعل الله في الطبيعة، بل التخلص من الخرافات، وأن سنن الله الكونية هي أساس العلوم الطبيعية. وما العلم إلا مسعى لاكتشافها.

ويثني الفاروقي على تخليص الغربيين العلم الطبيعي من الخرافة. إلا إنه يستدرك عليهم بأن إنجاز تلك المهمة على الوجه الصحيح كان يقتضي ربط العلم بالسنن الكونية. وهذه المهمة لا تتم إلا بالتوحيد. فهو شرط العلم الصحيح، لكونه يجمع كل خيوط السببية، ويعود بها إلى مصدر واحد، وليس إلى حتمية مزعومة.

وفي غيبة مراعاة هذا الشرط عانت قطاعات كبيرة من البشرية، ولا تزال تعاني، من رؤى تصور هذه الحياة الدنيا على أنها ساحة سقوط للإنسانية، تحتاج إلى مخلص لها منها، ومن فرية الخطيئة الأبدية، ومن أسطورة مملكة الشيطان، التي لم يتخلص العقل الغربي المسيحي منها، رغم مرور قرون على تأثره بالفكر الإسلامي وبفكر التنوير.

وفى المقابل، تأتى الرؤية التوحيدية لطيبات الحياة الدنيا وإيجابيتها، ولهدفيتها وخيريتها، وارتباطها بنظام محكم من السنن الكونية والمشيئة الربانية، والفعل الإنسانى الأخلاقى الحر المسؤول. فمع أن الأسباب فاعلة بحكم أن سنن الله تعالى لا تتبدل ولا تتغير، فإنها محكومة فى نهاية المطاف بإرادة الله المطلقة، التي لا معقب عليها.

وكل ما فى الوجود هو من خلق الله، ومصيره إليه. والإنسان كائن عابد حر مسؤول مستطيع بفطرته وقابلياته وبالوحي المنزل، وبتلمسه لأسباب الاستطاعة، فى كون قابل لتلقى فعله فيه. وبتقرير فاعلية الأسباب والسنن المبثوثة فى الكون مقرونة بكونها منظومة فى نهاية المطاف بالمشيئة الإلهية المطلقة، ينفتح الباب

أمام تحرير العقل الإنسانى من الشعوذة والسحر والخرافة، ويتم تجفيف منابع الدجل والشرك، وتتاح الفرصة لتحرير العقول، ولبناء علوم محررة من الأساطير.

ومن الإضاءات المعرفية المهمة التى يقدمها الفاروقي على هذا الرافد المعرفي التوحيدي، أنَّ بناء العلم لا يحتاج إلى نفي فعل الله تعالى المستمر فى الكون، بل إلى تخليص العلم من أساطير الأرواح والأشباح الوهمية، وذلك بمبدأ التوحيد الذى يجمع كل خيوط السببية ويضعها فى يد الله تعالى وحده، ويستأصل ظن وجودها فى يد قوى أخرى وهمية خفية.

ويؤسس الفاروقي لبناء صرح العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية، على هذا الخيط الفكرى المهم. فالتوحيد الإسلامي هو شرط العلم المؤسس على سنن كونية تكوينية وتكليفية ثابتة. والكون فى ظل هذا المبدأ له غاية، ويسبح بجناحين هما: الاعتماد المتبادل بين المخلوقات، والانسجام والتناغم الكامل بينها، لكونها مخلوقة بقدر، ومحكومة بسنن ومشيئة ربانية. فقط يعتريها الخلل، حالة الانحراف عن أمر الله التكليفي بما كسبت أيدي الناس.

ومؤدى ذلك هو: وجود آصرة وثقى بين العلم والأخلاق. فالطبيعة ليست مجرد نظام مادي، بل هي ساحة لغايات، كل شيء فيها مخلوق بقدر، بحيث يثري غيره ويحقق توازنه. والوجود مؤسس في ظل هذا التصور على سلسلة من النظم الدقيقة المتوازنة، ومن الغايات الفرعية بين المخلوقات المترابطة، في مملكة، مالكها الوحيد هو بارئها، والإنسان فيها مجرد مؤتمن مأذون له بالانتفاع وفق منهجه سبحانه وتعالى. وهو مأمور بتجنب العقوق، وبتحري الإحسان في استعمال كل شيء سخره الله له، فيما خلقه له.

وأساس انتظام الحياة هو ثلاثية: الاعتماد المتبادل بين المخلوقات والانسجام الكامل بينها، والفعل الأخلاقي الإنساني المنتظم بالمنهج الرباني، في الانتفاع بمسخرات مملوكة في الحقيقة لله تعالى، والتنقيب المتواصل في السنن الكونية بوصفه فريضة على الإنسان لبناء العلم وتحصيل الانتفاع، والوعي بجمال النظام

الكوني وبوجود الواحد الأحد المبدع والمدبر لأمره.[1]

سادساً: التوحيد مبدأ الأخلاق

الفعل الأخلاقي خاص بالجنس البشري كله في كل زمان ومكان. ومسرحه هو كل ما في السموات والأرض من مخلوقات. وتنفرد الرؤية الإسلامية للإنسان بوسطية تنتفي معها كل صور تأليهه، وكل صور تحقيره، وكل صور تلويثه ونبذه، وكل صور وزنه بغير عمله وسعيه. وفي ظل تلك الرؤية تنتفي القطيعة بين الدين والأخلاق، وتتأسس وحدة المعرفة وانفتاحها وهدفيتها، وتتبين الغاية من خلق الإنسان وبراءته الأصلية، وتقتصر المسؤولية الأخلاقية على الفعل الذى يقدم عليه الإنسان الراشد العاقل بنفسه بوعى وإرادة حرة، وفي حدود استطاعته، ويحدث به تحولاً فى مجريات الزمان والمكان، وتتزلزل كافة أساطير التمييز بين بني الإنسان التي ادعاها الإغريق واليهود، والمسيحيون الأوربيون الذين نسجوا على منوالهم من بعدهم. ولباب إنسانية الإنسان في ظل هذه الرؤية هو طاعة الأمر التكليفي بفعل أخلاقي يمثل أساس وظيفته الكونية.

ومفهوم الإنسان في ظل هذا المبدأ مختلف بالكلية عنه في منظورات أخرى. فالمنظور الإغريقي ألَّه كل ما هو إنساني بما في ذلك النقائص والرذائل. والمنظور المسيحي زعم انحطاط الإنسان من فطرة تجعله على صورة ربانية، إلى وضعية أسير لخطيئة أزلية أبدية لا فكاك له منها بفعله وسعيه. وانحدر المنظور الهندوسي به إلى درك طوائف اجتماعية متوارثة، تحدد قدره بمولده، وليس بسعيه، وتدمغ السواد الأعظم من البشر بصفة المنبوذ أو الملوث. وانتكس المنظور البوذي برسالته في الحياة إلى درك السعي للتخلص منها.

وحدها الرؤية التوحيدية هي التي لا موضع معها لتأليه الإنسان ولا لتحقيره، ولا للقطيعة بين الدين والأخلاق، ولا للثنائيات الوهمية المتقاطبة. فالكون

(١) الفاروقي، **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص١٠٢-١٢٠، انظر أيضاً:
- الفاروقي، **أسلمة المعرفة: المبادئ العامة وخطة العمل**، مرجع سابق، ص١٠-٢٥.

متناغم. وكل مخلوق يسبح على طريقته التي فطره الله عليها. والمعية الإلهية دائمة بعونها ورقابتها ومنهجها مع الإنسان بكافة تكويناته الفردية والجماعية. ولحظة خلق الإنسان هي لحظة ميلاد الحرية التكليفية في هذا الكون.

ونواة الأمانة هي استعمال الإنسان لحريته على نحو مسؤول، بوصفه مخلوقا يولد على الفطرة البريئة من كل عيب. وهو ليس مسؤولا عن فعل أمم خلت، بل عن فعله هو في حاضره ومستقبله، بالاستعانة بالوحي المنزل، وبالعقل والحواس والقابليات التي فطره الله مزودا بها. ولا وجود لخطيئة أصلية أبدية، ولا لتحميل أحد وزر فعل غيره. والإنسان في هذا التصور كائن محرر من كافة الأغلال المعرفية التي فرضتها الرؤى السابقة على الإسلام عليه. فلا محل لخطيئة أصلية أبدية يزعم القائلون بها، تغير طبيعة الإنسان بعدها.

ويسلط الفاروقي الضوء هنا على الآثار السلبية لأسطورة الخطيئة الأصلية، وينقد، بل ينقض، ما طرحه العقل الغربي من رؤ ى بشأنها، ثم يعود إلى بناء مفهوم الذات الإنسانية الفردية والجماعية المسؤولة عن فعلها الأخلاقي في حدود استطاعتها وطاقتها، وفي ظل ديناميات التوبة والمغفرة. فخطيئة آدم وحواء عادية غفرت بالتوبة. والإنسان لم يسقط أبداً، ولم تتغير طبيعته، ولم يحتج لمخلص، بل للسعي إلى الفلاح. والماضي مجرد عبرة.

والأمر التكليفي ضابط للحاضر والمستقبل فحسب. ولب ذلك الأمر هو: وجوب تفعيل الإنسانية بكل أنساقها، الدين في الحياة، بوسطية نافية للإفراط اليهودي في الحفاوة بالشكل على حساب مضمون الوحي المنزل وروحه، والإفراط المسيحي في التركيز على إصلاح الداخل الإنساني، دون أيما اعتبار لوجوب ظهور أثر ذلك على السلوك الخارجي في شكل أعمال صالحة يتغير بها الواقع الخارجي.

ولا موضع في ظل الرؤية التوحيدية، للغنوصية والرهبانية، وللحط من شأن كل الموجودات، ومن الإنسان نفسه بدعوى تلبسه بالهوى والخطيئة. وتربط

تلك الرؤية بين صلاح أي عمل وبين صلاح النية من جهة، وبين صلاح النية وتجسدها في عمل صالح من جهة أخرى. فالنية الصالحة بمثابة تذكرة دخول ساحة العمل الصالح. والعمل الأخلاقي هو تذكرة بلوغ مرضاة الله تعالى والجنة. ومؤدى هذا الربط بين خلافة الأمة وكل من النية الصالحة والعمل الصالح، نفي شرعية القعود والعزلة، حتى لو كانت الغاية منهما هي تنمية ما بالنفس من خصال حميدة.

ويقوم الربط بين الإيمان والعمل على هذا النحو على روح الأمة، ولبابها هو روح الشراكة، النابذة لكل من: الإيثار بالعمل نيابة عن الغير، والشراكة الإكراهية، والمكرسة لروح: أخلاقية العمل الإيثاري المشترك، بإقناع الغير بالمشاركة فى العمل الأخلاقى، الذى تتأسس عليه الكلمة السواء، والمجتمع الأمة القائم على إجماع النية والإرادة والعمل.

وخلاصة مفهوم المجتمع الأمة الذي ينحته الفاروقي هنا، هو المساواة بين البشر، المنظومة بعلاقة عهد مع الله تعالى، يرتبط في ظله الحق بالواجب، في خلافة تقوم على محاكاة جنة الله تعالى على الأرض بفعل أخلاقي إيجابي، في بيئة مهيئة له، في دار عمل وابتلاء، تليها دار حساب وجزاء عادلين ويقينيين.[1]

سابعاً: التوحيد مبدأ النظام الاجتماعي

يبرهن الفاروقي في بنائه للبعد الاجتماعي على التوحيد، على أن النظام الاجتماعي في الإسلام فريد وفطري وضروري ومرتبط بمفهوم الأمة والشأن الحياتي والزمان والمكان وبعملية صنع التاريخ. ويبرز تعلق جل أحكام الشريعة به من جهة، وتضمينه في الشعائر والأخلاقيات الفردية.

فهذا النظام مغاير لرؤى الأديان الهندية، التي تؤسس التفاعل بين الإنسان والحياة على أنها بمنزلة الضرورة الملجئة التي يسعى للتحرر من قيودها

(١) الفاروقي، **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص١٢١-١٥٩.

وسلبياتها. وهو مغاير للرؤية اليهودية، التي تحصر الفعل الأخلاقي في اليهود دون سواهم، على أساس قبلي ومزاعم عنصرية. وهو مغاير للمسيحية التي صورت رسالة المسيحية على أنها موجهة إلى داخل الإنسان بغنوصية تنبذ المادة على نحو مبالغ فيه، ولا تقيم وزنا للنظام الاجتماعي مهما كان صلاحه في عملية الخلاص التي تروج لها. وهو مغاير للرؤية العلمانية الحديثة القائمة على القطيعة بين الدين والشأن العام.

ولا تقر النظرية الاجتماعية الإسلامية أربع ركائز روّجتها الرؤى الدينية الأخرى، وكذا الرؤى العلمانية، وهي: اعتبار الخلاص والفلاح شأناً فردياً، والنزعة اليهودية القبلية المنغلقة الموغلة في المادية، والغنوصية المسيحية الموغلة في إدانة الشأن الدنيوي عامة والشأن السياسي بوجه خاص، على نحو ينتفي معه أي دور لذلك النظام في الخلاص المتصور، ومن ثم تغيب معه الحاجة إلى نظرية اجتماعية من الأساس، والفصل العلماني بين النظام الاجتماعي والقيم الأخلاقية، بوصفه مستحيلاً من جهة، وضاراً بالعمران حتى على فرض إمكانيته من جهة أخرى.

وبعد عملية التفكيك والتخلية هذه ينتقل الفاروقي إلى مرقاة بناء النظرية الاجتماعية الإسلامية؛ إذ يجلي العلاقة الوثيقة بين التوحيد والمجتمعية، ويرسم قسمات ومعالم مؤسسة كونية لتحقيق إرادة الله تعالى فى شقها الأخلاقي في أرض الواقع، على يد أمة حرة مسؤولة، أخرجت للناس، مكونة من مؤتمنين أحرار، الحاكمية في ظل عمرانها للشريعة. ومبادئ تلك الشريعة على مستويين: مبادئ معيارية لا زمانية ولا مكانية عامة ثابتة، ومبادئ إرشادية توجيهية عامة قابلة للتكيف مع معطيات الزمان والمكان.

وتشمل المضامين النظرية لتلك لرؤية الاجتماعية الإسلامية: الطابع العام للحياة الإسلامية (أخلاقية النية وارتباطها بالضمير، واقتصار أي مدد لها من

الخارج على النصيحة، واتساع أخلاقية العمل للمراقبة وللقياس الخارجي وللضبط بالقانون)، والحاجة إلى نسيج اجتماعي يجسد الإسلام.

فالمجتمع شرط للفلاح الأخلاقي لايتجسد الفعل الأخلاقي الإنساني إلا به. والمردود القيمي للسعي الجمعي يختلف عن نظيره المتعلق بالسعي الفردي. كما يختلف الأساس القيمي لما ينبغي أن يكون عن الأساس القيمي لما يمكن أن يكون. والقيم متعدية الأثر، ومن ثم تأتي أهمية الانفتاح عليها، وجدوى التلاقح بين الرؤية والتحقق.

أما من حيث الاعتبارات العملية للرؤية الاجتماعية الإسلامية، فيبين الفاروقي أن تحقيق الإرادة الإلهية مجتمعي بالضرورة، شريطة قيام المجتمع على مبادئ ثلاثة: العالمية النابذة لكل النواظم التخصيصية بين البشر، واستيعاب القيمة للخير كله حيثما وجد بما يحقق التناغم الكامل بين المجتمع والدولة، ومبدأ المسؤولية الكفيل بمنع تحول الكلية المجتمعية إلى شمولية.

وينتهى هذا الخيط الفكري برصد المضامين العملية لنظام اجتماعي مؤسس على المرتكزات النظرية سالفة الذكر، والتي تتمثل بمجتمع الخاصية الأم له هي: نبذ كل النواظم الحصرية كمعايير للقيمة. فالمجتمع الإسلامي عالمي التوجه، يرفض تأسيس منظومة الحقوق والواجبات على أية نواظم تخصيصية حصرية. وهو مجتمع منفتح بالضرورة، يسعى للتوسع ليشمل تحت مظلته الجنس البشري كله. وهو وفق هذه النظرية الاجتماعية الفريدة مدرسة تربوية كونية.

ويقدم الفاروقي هنا عملية تفكيك معرفية لمفهومي القبيلة والقومية، تجلى الطابع الحصري لهما، وحدود التسامح الإسلامي مع الولاءات الفرعية تحت مظلة البعد الإسلامي الإنساني الجامع. ويقارن بين التناغم الممكن تحقيقه بتعلية البعد الإسلامي بين أدوار الأنساق والولاءات التحتية المتحاضنة للأمة، بما فيها المجتمع والدولة، وبين النزعة الغربية التفريقية المؤسسة للولاءات المتنابذة، وللمفاصلة بين دوري الدولة والمجتمع، والمحبذة لما يسمى

بحكومات الحد الأدنى.[1]

ثامناً: التوحيد مبدأ الأمة

عضوية الجماعة طبيعية وحتمية، بعكس عضوية المجتمع. ولا يلزم أن يتطابق الكيان السياسي مع المجتمع. ومفهوم القوم والشعب أضيق بالضرورة من مفهوم المجتمع. والأمة مجتمع قابل لأن يضم كل الأعراق والشعوب والأقوام تحت هوية السلام الإسلامي الجامعة. ومن أهم خصائص هذه الأمة: عدم التمركز حول العرق، والاتصاف بالعالمية الجامعة، والكلية والشمول، والحرية، والدينامية، والوسطية العضوية، والرسالة الملموسة، والقابلية للتجسد بل ضرورة تجسيدها ومأسستها. وتتمثل ديناميات مثل هذه الأمة في أنه: لا إسلام من دونها. فلا أخلاقية إلا عبر المعاملات. وهي أمة واحدة لا تتعدد. وأساس واحديتها أخلاقي ديني بوصفها رابطة حرة بين أفراد بهدف تجسيد القيم المحققة للفلاح في الدارين. والحقيقة العليا واحدة. ولا بأس من تعدد الرؤى بخصوصها شريطة أن تكون مسؤولة.

ومفهوم الأمة هو وعاء النظام الاجتماعي الإسلامي الجامع. ونزعة الأمة هي الأصل. أما النزعة القومية فهي مجرد ظاهرة عابرة حديثة عهد بالوجود. ودرس الخبرة التاريخية يقول إنَّ روح الأمة تلد تمكيناً دنيوياً حتى لو قامت على أساس غير أخلاقي، كما هو شأن النموذج الصهيوني المعاصر، وإن كان ذلك التمكين يكون مؤقتاً واستدراجياً. ووحده التوحيد الإسلامي هو الذي يمكن أن يفرخ تمكيناً قابلاً للبقاء.

وغاية هذا المبدأ ليست إقامة الأمة العالمية. فخبرة التاريخ تبرهن على أن البشرية عرفت في الماضي والحاضر مساعي من ذلك النوع أخفق بعضها،

---

(١) الفاروقي، **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص١٦٠-١٨٤. انظر أيضاً:
- الفاروقي، **أطلس الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٩٨-١٠٠.

وحالف التوفيق البعض الآخر. فما يسعى إليه الإسلام هو بناء أمة كونية من نوعية خاصة، من أهم سماتها كونها: غير متمركزة حول العرق، ولا محصورة بمجال ولا بمكان ولا زمان، ولا هي بمخرجة نفسها، بل هي أمة أُخْرِجت للناس، حرة، كلية، عالمية، مكلفة بالسعي إلى الخيرية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، رسالتها إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

ومن طرف هذا الخيط يجلِّى الفاروقى -رحمه الله- ديناميات هذه الأمة الفريدة من نوعها، مبيناً مبرر وجودها، المتمثل فى أنه: لا إسلام دون الأمة الواحدة الجامعة، التي ترسى الأخلاقية بحياة الشراكة والترابط الطوعي مع الكون، وتنبذ أخلاقية العزلة. وتبني علاقة الإنسان بكل ما بالكون على أساس أخلاقي حر، لا إكراه فيه. وتجمع بين الاجتهاد في معرفة إرادة الله في بعدها الأخلاقي، وفي تحقيق الإجماع على ما يتوصل إليه العقل الإنساني بخصوص سبل الارتقاء بالواقع المعاش قدر الاستطاعة الإنسانية إلى المستوى المطلوب بالوحى والفطرة السوية وإعمال العقل والحواس في تدبر السنن الإلهية الكونية، والانتفاع بالطيبات، وتجنب الخبائث، مع التوسيع المتواصل لدائرة استكشافها، والالتزام بمعاييرها، وتفعيلها.

ومفهوم الأمة المشار إليه قابل لتقسيم فضائه المكاني إلى وحدات سياسية وإدارية حسب متطلبات الواقع، بشرط نبذ الثنائيات المختلقة، والفواصل المفتعلة. فهذه الأمة دينامية بطبعها. وهي بمثابة الجسد الواحد، والبنيان الواحد. ولإن كان الإسلام قد وضع البشرية أمام كثير من الحجرات المغلقة، فإنه أمدها بمفاتيحها. وتقع مسؤولية عدم استخدام تلك المفاتيح، ومن ثم عدم الدخول إلى تلك الغرف، واستكشاف ما بها من خيرات والانتفاع بها، على كاهل البشر.

وينتهى سياق هذا الخيط الفكري إلى واحدة من أهم النقاط التى تجاوز فيها الفاروقي التنظير لمركزية التوحيد فى كل مجالات الفكر والحياة، إلى

تقديم تصور عملى لخطوات تأسيسية لاستعادة بنية الأمة. وجمع رحمه الله هنا بين أمرين: صياغة تصور لمؤسسات الأمة الأولية يقوم على: المسلم العامل، والعروات الوثقى، والأسر، والزوايا، والجمعيات، وربط إنشاء مؤسسات فوقية أسمى منها بما يكشف الواقع الإسلامي نفسه عن حاجته إليه. ونبهنا إلى عدم إنشاء مؤسسات في فراغ، ولا بمجرد التصور الذهني.[1]

تاسعاً: التوحيد هو مبدأ المؤسسات الاجتماعية المجعولة

يميز الفاروقي في هذا المقام بين المؤسسات الاجتماعية الأولية وفي مقدمتها الأسرة والبنى النابعة منها من جهة، والمؤسسات الثانوية المحاكية لها التي هي من صنع الإنسان من جهة أخرى. ويردّ ما أصاب مؤسسة الأسرة من وهن خلال القرون الأخيرة إلى: التزييف الشيوعى لمفهوم المساواة، وتآكل الرابطة الأسرية فى العالم الغربى، ودور علماء ما يسمى بعلم أصل الإنسان فى إسقاط معطيات دراساتهم عن عالم الحيوان على عالم الإنسان.

ويؤكد الفاروقي عبر عملية تفكيك معرفية أن ثمة اختلاف نوعي بين مؤسستي الأمة والأسرة، والأنساق المجتمعية الثانوية الطارئة مثل القومية والعرقية والطبقية. ويجلِّي تهافت الأطروحات المتمحورة حول التصور العلماني للمساواة، ويرصد سوءات الأسرة النواة التى روج ذلك التصور لها، في مقابل حسنات ومزايا العائلة الممتدة التى يدعو الإسلام إليها. وينتهى إلى إثبات أنَّ المساواة بين المرأة والرجل هي الأصل، ولكنها محكومة بالتمايز والتكامل بين دوريهما. فالإسلام ضد سفور المرأة وضد انعزالها أو عزلها عن العمل المجتمعي، ومع مفهوم المرأة المسلمة العاملة وصاحبة المهنة.[2]

---

(١) الفاروقي، **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص١٨٥-٢٢٠.

(٢) المرجع السابق، ص٢٢٢-٢٤٠.

عاشراً: التوحيد مبدأ النظام السياسي

النظام السياسي الإسلامي مرادف لمفهوم الخلافة. وهو نظام أمة حرة ناظمها الوحيد هو الإسلام، اختارت أن تقيم شبكة علاقاتها على شرع الله تعالى، أو بالأحرى على ما لا يخالفه، وظيفتها هي إعادة تشكيل العالم بإجماع ثلاثي للرؤية والإرادة والعمل. ويدخل التحويل الفعلي للأرض والبشر باتجاه الإرادة الإلهية بفعل أخلاقي في صميم مفهوم العبادة.

ويستعرض الفاروقي بعد هذه المقدمات ما يسميه: الحقائق المحزنة لواقع القوة السياسة للعالم الإسلامي، مبيناً أن بؤرة انحطاطنا تكمن في مجالي: التربية والتعليم، والتدريب، فضلاً عن غياب القيادة الملهمة. ثم يتحسس وعد القوة السياسية لأمتنا، والطريق إلى إعادة بنائها من الداخل، باستيعاب درس الخبرة التاريخية، وهو: ارتباط سلامة النظام السياسي ونضجه بمدى تمثله لقيم التوحيد، وتحويلها من مبادئ إلى واقع معاش. فأيُّ نظام سياسي يقوم على أساس من اثنين: عصبية باحثة عن الفوارق ومصطنعة لها، أو عصبية إسلامية باحثة عن الجامع ومعضدة له، عبر عملية اجتهاد متواصلة، ترسي إجماعاً يخضع لعملية اختبار متواصل تكفل تجديده وتصويبه وتناغمه. والحد الأدنى لذلك الإجماع الاجتهادي هو الإرتقاء في السعي الإنساني الآخذ بالأسباب لتحقيق الكفاية للبشرية جمعاء. أما حده الأعلى فلا سقف له.

ثم ينتقل من ذلك إلى بيان آفاق وعد القوة السياسية لأمتنا فيما لو عادت عودة حميدة إلى رحاب توحيدها الخالص. ولما كان فاقد الشئ لا يعطيه، فإنَّ عطاء هذه الأمة للبشرية، لا بد أن يبدأ ببناء الخلافة بالداخل الإسلامى على يد صفوة رشيدة محتسبة.

ويستعرض الفاروقي هنا جناية الغرب المعاصر بتوجهيه الشيوعي والرأسمالي على مؤسسة الأسرة، وما جرَّته من وهن على المجتمع. ثم يجلِّي مركزية مؤسسة الأسرة، مبينا كونها نواة للأمة العالمية الجامعة، وارتباط جانب كبير من شبكة العلاقات ومنظومة العمل الصالح الأخلاقي بها، في مقابل هامشية مؤسسات

مجتمعية أخرى مثل القوم والقبيلة والعرق. ويصل إلى حد القول بأنه لا توحيد دون الأسرة. ثم يفكك مشكلات معاصرة متعلقة بالأسرة، في مقدمتها: المساواة بين المرأة والرجل، ويقررها على المستويين الديني والأخلاقي، وعلى مستوى الحقوق والواجبات المدنية، ولكنه ينفيها على مستوى الدور بتمركز دور المرأة داخل البيت، ودور الرجل في السعي خارجه.

فدور المرأة ودور الرجل متمايزان ولكنهما متكاملان لا قيام لأحدهما إلا بالآخر. ويأبى الإسلام سفور المرأة وعزلتها، ويضع ضوابط لانفتاحها على المجتمع ومشاركتها في الشأن العام. ثم يحلل مسألة الزواج والطلاق. ويقارن بين مزايا الأسرة الممتدة ومثالب الأسرة النووية. ويختم ببيان لكيفية جمع المرأة بين مهنة الأمومة وتأهيلها لها، وتعلمها حرفة.[1]

حادي عشر: التوحيد مبدأ النظام الاقتصادي

يستهل الفاروقي بناءه للنظام الاقتصادي الإسلامي بقراءة نقدية للمنظور الاقتصادي المسيحي، والإسهام المعرفي الإسلامي في إنقاذ العالم من مثالب كل من التدين الإغريقي والهندي في حقل الاقتصاد. ثم يستعرض السمات الدنيوية للمنظور التوحيدي، ويجلِّي حقيقة أخلاقية الفعل الإنساني، وعدم وجود شيء مادي شرير بذاته، ويربط ذلك الفعل بالإيمان باليوم الآخر، وبعالمية الاقتصاد الإسلامي وانفتاحه، وبأخلاقيات الإنتاج والتجارة والتوزيع، وصيانة البيئة، وطهارة الإنتاج والبيع والشراء، وأخلاقيات الاستهلاك، بقراءة نقدية مقارنة، تقيم الدليل على أن هامة البديل الإسلامي في العدالة الاجتماعية وإعادة الاعتبار لإنسانية الإنسان تتقازم أمامها أسمى المثاليات الغربية المعاصرة.

فالإسلام يتبوأ موضع الصدارة بين كافة الأديان والعقائد، في حفاوته

(١) المرجع السابق، ص٢٤١-٢٦٠.

بالبعدين السياسي والاقتصادي، بوسطية جامعة، وبموازنة بين الروحي والمادي، وفي دعوته للاستمتاع بالطيبات وفق ضوابط الشرع. والحياة الدنيا -في ظل هذا المنظور الإسلامي- ساحة للفعل الأخلاقي للإنسان بصفته كائناً أخلاقياً حراً مسؤولاً، ضمن نظام اقتصاد عالمي ملتزم بالحرية والانفتاح وبأخلاقيات للإنتاج والاستهلاك والتجارة، ورفض الحواجز.

وتشمل المبادئ الأخلاقية للإنتاج: الاستخدام المسؤول للموارد فى العملية الإنتاجية، وطهارة الإنتاج من الخبائث الحسية والمعنوية، وتحرِّي الربح العادل والأجر العادل، ومراعاة أخلاقيات الإنتاج. وعدالة الربح والأجر أمران موقفيان. وتربية الضمير الإنسانى، والقانون، يتكاملان فى رعاية الإلتزام بضوابط الإنتاج والاستهلاك والتجارة.[1]

ثاني عشر: التوحيد مبدأ النظام العالمي

يجلى الفاروقى أبعاد هذا المبدأ بإضاءة معرفية على أربعة محاور: الأخوة العالمية كما تجسدت في عهد المدينة المنورة، وكما استلهمها السلف الصالح في تعاملهم مع كل أمة ذات دين مهما كان موقف الإسلام منه، ونظام السلام الإسلامي الجامع، وقانون الأمم الإسلامي، ومؤشرات سمو النظام القانوني الدولي الإسلامي. ويختتم الفاروقي بيان هذا الرافد التوحيدي المعرفي، بإطلالة على تجاوز السلام الإسلامي لمنح غير المسلمين العدل إلى مصاف منحهم الإحسان بمضامينه المعرفية، فيما يتعلق بصيانة حرية العقيدة عن أي شبهة إكراه فى الدين.

ويؤسس الفاروقي تنظيره للتوحيد بوصفة نواة النظام العالمي على قراءة نقدية مقارنة للعبث بمفهوم الإنسان، ومن ثم لوظيفته ومرجعيته، في مقابل الارتقاء به حالة اتخاذ التوحيد ناظماً وحيداً لتعريفه ولتحديد وظيفته ومرجعيته،

(١) المرجع السابق، ص٢٦١-٣٠٦.

واتخاذ كل أهل دين من دينهم مرتكزاً لتنافسهم في الخيرات.[1]

ثالث عشر: التوحيد مبدأ الجمال

يختتم الفاروقي أطروحته الفريدة هذه ببيان أنَّ التوحيد هو مبدأ الجمال، ويفنِّد أوهاماً بنيت على أحقاد غربية، وعلى معايرة الفن الإسلامي بمعايير من خارجه، ويجلِّي وحدة الفن الإسلامي وفتوحاته المعرفية، وما يواجهه من تحديات، ويرسم معالم الطريق لقراءة صحيحة له.

ويكشف النقاب عن تفرد الفن الإسلامى بشتى صوره بخاصية إثبات الطابع المفارق للذات الإلهية عن كل ما هو طبيعى. وبجملة واحدة، يبرز تألق الفن الإسلامى بشتى صوره بكونه متبتلاً على الدوام في محراب التوحيد، نافياً صفة الإطلاق عن أي شيء في الوجود، باستثناء الذات الإلهية. فالفن الإسلامي يضع الإنسان دائماً في معية الله تعالى، مثبتاً له الوحدانية، نافياً الألوهية عن كل ما عداه. وفي المقابل، تنحصر فنون الأمم غير الإسلامية فى دائرة الافتتان بمعية الإنسان أو الطبيعة.

ويختتم الفاروقي طرحه ببيان الفتوحات المعرفية التوحيدية التى حققها الفنان المسلم. ويستعرض طبيعة اللغة العربية والشعر العربى والقرآن الكريم، وما بتلك اللغة من إمكانيات فريدة وثرية اكتشفها الفنان المسلم، ووظفها في التعبير عن النهائى المطلق. ويسلط الضوء على المضامين والدلالات الجمالية للأرابيسك بالقياس بالموزاييك الفسيفسائى، وعلى الرابطة الوثقى بين اللغة العربية وخميرة العروبة وفنون الخط العربى، والإسلام.[2]

---

(١) المرجع السابق، ص٣٠٧-٣٢٠. وحول مرتكزات النظام العالمي والخلافة والدولة، انظر:
- الفاروقي، **أطلس الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٢٣٧-٢٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص٣٢١-٣٦٠. وحول طرح مفصل وموثق للفتوحات الإسلامية التوحيدية في مجالات الفنون، انظر:
- الفاروقي، **أطلس الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٤٧٩-٥٧٣.

خاتمة: كشف حساب النواة التوحيدية من التأصيل إلى الإستلهام والتفعيل

قد لا نقع في فخ المبالغة إن قررنا بعد هذه الإطلالة الخاطفة، أنَّ الفاروقي رحمه الله قدَّم تأصيلاً وتفعيلاً فريداً للتوحيد بوصفه نواةً للنظام المعرفي الإسلامي، ووضع أيدينا على منبع داء أمتنا وشروط التعافي منه. وقد لا نقع في فخ جلد الذات إن قررنا أنَّ الجماعة العلمية المسلمة لم تتعامل بعد مع الرسالة التي وجهها الفاروقي إليها بالجدية التي تستحقها. ودون بخس لما أثمرته مدرسة إسلامية المعرفة من بعده، أتساءل: أين نحن من وصف الفاروقي لحالة الأمة؟ أين نحن من لائحة الحساب التي واجه بها الجامعيين؟ أين نحن من وصفة التعافي التي رسمها لنظام التعليم في عالمنا الإسلامي؟ أين نحن من استلهام تلك الرؤية وتعميقها، وابتكار آليات عصرية ملائمة لتجسيدها في واقع الأمة القطب؟

ولكي تجيء الإجابة منصفة يكفينا أن نعاير على عجل واقع الأمة وجماعتها المعرفية على صعيدي التنظير والتفعيل على ضوء الوصف والوصفة المعرفية الفاروقية التوحيدية المطروحة منذ ثلاثة عقود:

أ- أوّليات المعمار المعرفي التوحيدي:

مهد الفاروقي لذلك المعمار بالتذكرة بثلاثية مهمة، قاعدتها هي: الهوة السحيقة بين قابليات الأمة الإسلامية العالمية وبين واقعها الذي لا تحسد عليه. وضلعها الثاني هو رد تلك الهوة إلى عدم تمثل سنة التغيير بتغيير ما بالنفس بدرجة ازدادت حدة واغتالت روح الأمة؛ إذ سارت حركة الإصلاح فيها حتى وفاته، في أطوار أربعة، كل منها أدنى من سابقه، وضلعها الثالث هو إثبات درس الخبرة التاريخية أنه لا إصلاح إلا بالتوحيد الإسلامي. ولن تقوم لأمتنا قائمة، ولن تستعيد وضعيتها بوصفها الأمة العالمية الوسط الشاهدة إلا بالإسلام؛ فهو مبرر وجودها، ومحدد معالمها، وصانع تاريخها، وعماد الإصلاح الحقيقي

بالنسبة لها. ووحدها رؤية المسلم نفسه خليفة فى الأرض بأمر الله تعالى، هي التى تصنع منه محركاً لعجلة التاريخ الإنساني.[1] فأين نحن من هذه الأوليات التأسيسية؟

الإجابة التي قد لا يختلف عليها اثنان أن تلك الهوة في اتساع مطرد، والتوافق على تمثل سنة تغيير ما بالنفس واستيعاب درس التاريخ بأن لا إصلاح إلا بالإسلام هدف لا يزال غير متجسد في واقع الأمة. ولعل هاجس المفاصلة بين الديني والسياسي، وحمى مقولة الدولة المدنية، وتشوف فصائل بالصف الإسلامي إلى قواعد فوق دستورية لتنحية الدين عن الشأن العام فيما يعرف بالربيع العربي، والاستقواء بالخارج واستدعاء التدخل الخارجي، والتقاتل بين أبناء عديد من الدول العربية واستمرار وضعية الهزال في الروبط بين الأقطار العربية واسلامية في كافة المجالات قياساً بعلاقاتها الخارجية مع الغرب، والافتقار إلى كلمة جامعة بين شتى فصائل الأمة، وإلى كلمة سواء مع غير المسلمين، شاهد على بقاء الوصف، وعلى عدم استلهام الوصفة الفاروقية.

فلنعد التذكير بتقويم الفاروقي لخبرة معايرة أطوار مسعى الإصلاح في الأمة بمعيار تغيير ما بالنفس منذ بداية الهجمة الأوربية عليها.

بدأت مساعي الإصلاح في الأمة بحركة إصلاحية سلفية، نقب روادها عن داء الأمة على الوجه الصحيح في عمق نفسيتها، وعن الدواء في حلول جذرية قِبْلَتُها هي: الوسطية. إلا أن تلك الحركات الإصلاحية أصيبت في مقتل لكونها نخبوية، طرحت رؤيتها على بقية الأمة وعلى الآخر، دون تجهيزهما ولا جهوزيتهما للتعاطي معها، مما أدى إلى تواضع درجة نجاحها.

ثم انحدرت محاولات الإصلاح الحكومية القومية في عالم ما بعد الاستعمار التقليدي إلى ما هو بمثابة البناء على رمال، لكونها قامت على ناظم تفريقي هو القومية المعيدة لداء الشعوبية العضال، وانصبت على ما هو مادي، متغافلة ما هو

(١) الفاروقي، **التوحيد**، مرجع سابق، ص٢٨-٣٣.

Open Kan.com

روحي. وكشفت خبرة تلك المحاولات عن حقيقة أن التحمس لها ارتبط بدرجة تمثلها لخميرة البعد الإسلامي. فمع خفوت ذلك البعد فتر الحماس، وغابت البصيرة في تحديد العلة، وأخفقت الحركات الإصلاحية القومية المنبع في إعادة صنع الإنسان المسلم، وأوغلت في تغريبه ومسخه، وفي تكريس القطيعة بينه وبين ماضيه.

ثم زادت محاولات الإصلاح العلمانية الأكثر حداثة الطين بلة. ففي حين ركزت حركة الإصلاح في بدايتها على تنقية الرؤية الكلية الإسلامية من ركامات الخرافات والجهل، سعت حركة الإصلاح في هذا الطور إلى تزيين تجاوز الدين والاستهانة به، فواصلت الأمة ترديها.

وأخيراً جاء مسعى الإصلاح الإخواني، وبدأ هذا المسعى بداية رائدة واعدة تستحضر خبرة مساعي الإصلاح السابقة وتبني عليها، إلا أنَّ الجماعة لم تستطع مواصلة السير بذات المستوى الذي عرفته على يد مؤسسها، وتم جرها إلى معارك جانبية استنزفت طاقاتها. وتمثلت خطيئتها الكبرى فيما شاب فكر الجيل التالي لمؤسسها من عجز عن بلورة رؤية كلية كونية للإسلام، تبرز علاقته بكل لحظة من حياة البشر، وبكل أطياف النشاط الإنسانى المعاصر، نتيجة عدم تركيزه على إتمام المهمة التي شرع حسن البنا في القيام بها، وهي: تعميم الوعي في صفوف الأمة بمبادئ الإسلام، وبيان أنها صالحة كأساس لوجود الإنسان فى عصره، وقابلة للبقاء. وأسفر ذلك عن تضخم عددي لمنتسبي الحر كة مع اضمحلال لعمقها الفكري.

وعلى ضوء هذا التوصيف يمكنني القول بأن الجماعة العلمية المعنية بإسلامية المعرفة استوعبت هذا الدرس الفاروقي، وعكفت على بناء الرؤية المعرفية الإسلامية الكلية، وعلى البناء على خبرة مساعى الإصلاح السابقة، ونجحت في عدم جرِّ غيرها لها إلى معارك جانبية، وقبلت النقد البناء، ومرت مرور الكرام على النقد السطحي. وجرت في سياق مدرسة إسلامية المعرفة على

يد نظرائه وتلاميذهم، عماية مراكمة على التأصيل الذي قدمه برصد حالة الأمة وبناء خرائط للإصلاح فيها برؤية معرفية توحيدية تنتقد وتنقض وتبني على منوال الركن الأول من الإسلام. إلا أنَّ هذا الجهد لايزال يعاني من الطابع النخبوي، ومن عدم ابتكار سبل لتعميم وعي الأمة به، ناهيك عن تحويله إلى واقع معاش تعود به الأمة إلى الموقع اللائق بها في صناعة التاريخ.[1]

ب- الحلقة الخبيثة المفرغة ودور الجامعيين في كسرها:

قبل ثلاثة عقود رأى الفاروقي أن أمتنا تعيش في دائرة خبيثة مفرغة، والجامعيون هم المسؤول الأول عن تلمّس سبل كسرها. ولبّ تلك الدائرة هو استنزاف طاقات الأمة بالمواجهة مع إسرائيل، والصراعات بين الدول الإسلامية، والإخفاق في عملية بناء لحمة مجتمعية حقيقة داخل الدولة الواحدة، ناهيك عن تحقق الوحدة بين بعضها، والتبعية المستدامة المنغمسة فيما هو تجميلي، الذاهلة عما هو أساسي وضروري، وإلقاء حمل المسؤولية على الغير بدل التأكيد على ضرورة تغيير ما بالنفس، وتعزيز جهاز المناعة الذاتي، وقبول النخبة الجامعية بما هو أدنى، بالنظر إلى مهنتهم كمصدر للرزق، والتعويل على تخريج مهنيين دون بناء نفسيتهم وولائهم وبصمتهم الحضارية، وابتعاث غير المؤهلين لتلقي العلم الكلي ولتجفيف منابع الحاجة إلى مواصلة الابتعاث من جهة، وإعادة انتاج المبتعثين للتبعية من جهة أخرى.

---

(١) عمر، السيد. "حول مفهوم الأمة في قرن: نقد تراكمى مقارن"، **حولية الأمة في قرن**، القاهرة: مركز الدراسات الحضارية، ٢٠٠٢م، انظر أيضاً:

- عمر، السيد. "مداخل الإصلاح فى الأمة: جدالات السياسي والديني"، **أمتي في العالم**، القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٠٠٧م.
- عمر، السيد. "بصائر منهجية فى التعامل مع التراث: إطلالة على العطاء المنهجى للعلامة منى أبو الفضل"، ندوة: قراءة في منظومة العطاء الفكري للدكتورة منى أبو الفضل: مشروع "قراءة في الفكر الحضاري لأعلام الأمة"، القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية بالتعاون مع برنامج الدراسات الحضارية وحوار الثقافات، ١٥-٢٠٠٩/٣/١٦م.
- عمر، السيد. "معايرة مفهوم التحيز من فكر عبد الوهاب المسيري ومنى أبو الفضل"، أنقرة، المؤتمر الدولي الأول للعلوم الاجتماعية، ٢٠١٠م.

ويحاسب الفاروقي الجامعيين على أربع مشكلات يرى أنها أس انحطاط المسلمين، لا تزال مستعصية: الاستغراب، والإزدواجية المفرخة للمتخصص الممسوخ، والتقطيبات المركبة (تقطيب الدين مقابل الحياة، تقطيب الأخلاق والتعليم، وتقطيب الفكر مقابل العمل، وتقطيبات الغرب، بما يصاحبها من استغراق في واقع الغرب لا في واقع أمتنا، ومن فصل بين الجامعة والمجتمع)، ومعاناة جامعاتنا من النقص الحاد في الوعي الرسالي.[1] فماذا فعلنا، وماذا نخطط لفعله في مواجهة تلك الحلقة المفرغة بمشكلاتها وتقطيباتها؟

الإجابة على هذا السؤال ذات كفتين. فمن جهة لا يزال جزء كبير من هذا الوصف صحيحاً، إن لم يكن قد صار أسوأ من ذي قبل. فالجامعات في عالمنا الإسلامي في مجملها لا تزال مجرد مصانع لإنتاج موظفين أصحاب حرفة يرتزقون منها. وهي في ظل ما يسمى الآن: معايير الجودة والاعتماد، صارت أكثر قابلية للاستلاب، وللتبعية للغرب، مغلولة اليد مسلوبة الإرادة بهاجس ما يسمى: سوق العمل، على نحو يعلو فيه الشكل على الجوهر. ولا تزال التقطيبات التي ذكرها تنخر في عقل أمتي الإجابة والدعوة على حد سواء. ولا تزال عقبات عويصة تقف أمام الراغبين في إنتاج كتب منهجية إسلامية المرجعية على صعيد التعليم ما قبل الجامعي والتعليم الجامعي. وتحولت بلدان عربية بتعليمها إلى التعليم الغربي بالمطلق، أو على الأقل جعلت التعليم بالعربية مجرد ذيل للتعليم باللغات الأجنبية.

ومن الجهة الأخرى، قطع المعهد العالمي للفكر الإسلامي شوطاً لا بأس به على طريق إنتاج معرفي يفكك تلك التقطيبات ويبين زيفها، ويعيد بناء الوعي بالحياة الدنيا بوصفها ساحة للفلاح، لا للخلاص، بفعل إنساني أخلاقي مسؤول.

---

(١) الفاروقي، إسماعيل راجي. "حساب مع الجامعيين"، **مجلة المسلم المعاصر**، عدد٣١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢ م. انظر أيضاً:

– الفاروقي، إسماعيل راجي. "نحو جامعة إسلامية"، ترجمة: محمد رفقي محمد عيسى، **مجلة المسلم المعاصر**، عدد٣٣، نوفمبر١٩٨٢م، أغسطس ١٩٨٣م، ص٤٧-٥٤.

ومؤلفات أستاذتنا من أمثال: عبد الحميد أبو سليمان، وطه العلواني، ومنى أبو الفضل، وطارق البشري، ومحمد عمارة، وفتحي ملكاوي، وعبد الرحمن النقيب، ورفعت العوضي، وجمال عطية، وسيد عثمان، وتلاميذهم، خاصة في مضماري التنشئة والمنهاجية، دليل دامغ على ذلك.

ورغم حقيقة أن جدلا لايزال يدور بين فرقاء من المنتمين لمدرسة إسلامية المعرفة بخصوص مفهوم الجمع بين القراءتين -قراءة الوحي وقراءة الكون- مع دعوة بعضهم إلى أولوية الأولى، أو بالأحرى القول بقراءة واحدة جامعة باسم الله تعالى لكل من الوحي والكون المنظور، فإنَّ إسهامات مدرسة إسلامية المعرفة من بعد الفاروقي رسخت عملية نقد القراءات الأحادية وتفكيكها، بما فيها قراءة علماء أصول الفقه الإسلامي، ومنهاجية الفقه الفروعي، وقراءة التعضية للقرآن الكريم، وأسست صرح المنهاجية القرآنية الجامعة.[1]

إلا أنه يلزم القول مرة أخرى، بأن جل هذا الإنتاج من الصناعات الفكرية الثقيلة لايزال ينتظر تعميم معرفة العامة به، وتفعيله في واقع الأمة.[2] وفضلاً عن ذلك فإن كثيراً مما أنتجته مدرسة إسلامية المعرفة واجه مشكلة مرور سنوات دون أن يرى النور، وهو ينتظر النشر.[3] كما توقف مشروعي الترجمة وبناء المفاهيم، بمركز الدراسات المعرفية بالقاهرة منذ عقد من الزمان. وتكشف خبرة العديد من المشروعات البحثية الجماعية عن ندرة من يمتلكون عدة هجر الاشتغال بالدراسات السطحية والمحاكية للغرب، والنية والعزيمة للتبتل في رحاب بحوث الأمة النابعة من روحها والمعبرة عنها.

---

(١) عمر، السيد. **إسلامية المعرفة: مراجعات على طريق بناء علم العلوم**، دراسة غير منشورة، ص٤-٢١.

(٢) تكفي الإشارة هنا على سبيل المثال إلى سلسلة الدراسات القرآنية للدكتور طه العلواني، وحولية أمتي، وسلسلة بناء المفاهيم، وسلسلة التأصيل النظري للدراسات الحضارية، ومشروعات بحوث التنشئة، ومشروع تقويم إسلامية المعرفة في ربع قرن.

(٣) من ذلك على سبيل المثال، مشروع بحوث التنشئة الحضارية، ومشروع تقويم إسلامية المعرفة في ربع قرن، المنجزان بالقاهرة منذ ما يربو على خمسة أعوام.

ت- التفكيك الفاروقي للعلوم الاجتماعية الغربية:

دعا الفاروقي في دراسته الرائدة الموسومة بـ"صياغة العلوم صياغة إسلامية"، إلى نظم كافة العلوم تحت لواء التوحيد، وأقام الحجة على ذلك بالبدء بتفكيك العلوم الاجتماعية الغربية مبرزاً حداثتها وهشاشتها وتحيُّزها ونقصها وعدم صلاحيتها للدارس المسلم، ثم عايرها بمبدأ وحدة الحقيقة وعلم قيم الأمة. وقدم توصية للعمل أماط فيها اللثام عن حاجة الأمة إلى إعادة بناء فكرها على نحو مؤسسي يكفل تطهير عقل النخبة من النفايات الغربية، وتنشئة وعيها بضرورة أسلمة العلوم.

ورسم تصوراً أولياً إجرائياً لتحقيق ذلك بوساطة اتحاد للعلماء الاجتماعيين الملتزمين بالإسلام مرتبط بجامعة إسلامية كبرى، يتولى مهام تحديد أعضائه الكامنين من حملة الدكتوراه والعلماء، وتحضير مادة الدراسة وأدوات البحث بتحديد المصادر الرئيسة في كل فرع معرفي وتجهيزها وتقريبها، وتقديم بحوث تحليلية على عينات منها، فضلاً عن إخراج بحوث إبداعية، والتدريب والتأليف بإعداد المعلم المدرب والكتاب المدرسي.[1] فأين ما أنتجته الجماعة المعرفية في عالمنا الإسلامي على صعيد بناء نظرية اجتماعية بديلة، وتخليص العقل المسلم من الفتنة بما أفرزه العقل الغربي والبيئة الغربية من علوم اجتماعية ممسوخة تعاير الإنسان بالحيوان؟

من المقطوع به أن من خلفوا الفاروقي في ريادة إسلامية المعرفة أولوا عناية كبيرة للعلوم الاجتماعية، وجاروه في الاعتقاد بأن أسلمتها يجب أن تكون لها الأولوية، وأنها ستؤدي بالتبعية إلى أسلمة العلوم الطبيعية. بيد أن منتسبي مشروع إسلامية المعرفة انقسموا بين من يرون أن النظرية الاجتماعية الغربية بحاجة إلى استكمال وليس إلى استبدال، ومن يرون أنها بحاجة إلى بديل. وفي صدارة

(١) الفاروقي، إسماعيل راجي. **صياغة العلوم الإجتماعية صياغة إسلامية**، رسائل إسلامية المعرفة ٥، الرياض: الدار العالمية للكتاب الجامعي، ص٨-٣٩.

Openkan.com

الاتجاه الأول تأتي مقاربات إبراهيم رجب. وفي صدارة الاتجاه الأخير المستلهم لرؤية الفاروقي التوحيدية يأتي إسهام منى أبو الفضل في نقد النظرية الاجتماعية الغربية، ونقضها، ورسم معالم نظرية اجتماعية إسلامية بديلة. وعلى قيثارتها عزف تلاميذها من أمثال سيف الدين عبد الفتاح ونادية مصطفى، وباستلهام عطائها قطع فريق المتخصصين في العلوم السياسية بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي مشواراً طيباً في إعادة الاعتبار لعلم السياسية من مرجعية إسلامية.[1]

ث- استعادة العافية لنظام التربية والتعليم في عالمنا الإسلامي

أكدَّ الفاروقي على المركزية المطلقة للسنة الإلهية المتمثلة في أن التغيير لا يأتي من الخارج بل مما بالنفس. والمدخل الرئيس لذلك هو استعادة العافية لنظام التربية والتعليم في عالمنا الإسلامي. وقدم الفاروقي نقداً معرفياً لمحاولات إصلاح التعليم الإسلامي، بما فيها المحاولة التي شهدها الأزهر في العهد الناصري، مبرهناً على عوارها، لغفلتها عن حقيقة أنَّ وراء كل العلوم غربية النشأة مضموناً ومناهج بحث، يجران معهما رؤية كاملة للحياة، ونظاماً قيمياً دخيلاً يحتم عقمها. ودعا ترتيبا على ذلك إلى البراءة من محاولات الإصلاح السطحية تلك، والسعي إلى صبغ العلوم بصبغة إسلامية، بإعادة صياغة كل علم بالتوحيد بأبعاده الثلاثة: وحدة المعرفة، ووحدة الحياة، ووحدة التاريخ، وعلى نحو مخطط. ونبهنا الفاروقي إلى أن البحث عن المعرفة لا بدّ أن تكون له روح. وهذه الروح لا تستعار.

ولخص الفاروقي علَّة الأمة، والأعراض الرئيسة لمرضها على الصعيد السياسي، والاقتصادي والثقافي والديني، في مقولة واحدة: المسخ الثقافي،

---

(١) عمر، السيد. "توجيه بحوث التنشئة السياسية والاجتماعية فى الجامعات "، مؤتمر توجيه بحوث الجامعات لخدمة قضايا الأمة، القاهرة، كلية التربية، جامعة الأزهر، مركز الدراسات المعرفية، ٢٠٠٧م، انظر أيضاً:

- عمر، السيد. **تقويم منهاجية إسلامية المعرفة في ربع قرن**، ضمن: **إسلامية المعرفة في ربع قرن**، القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، (دراسة قيد النشر).

وخلص إلى أنَّ مكمن الداء هو: النظام التعليمي الذي يعيد إنتاج التغريب العقلي والنفسي الممسوخ، والقطيعة العقلية والمعرفية مع هويتنا وبصمتنا الحضارية الإسلامية. وسجل في وصفه لحالة النظام التعليمي في عالمنا الإسلامي كونه نظاماً فاقداً للرؤية، كان متردياً في عهد ما قبل انتهاء الاستعمار التقليدي، وبات أشد تردياً من بعده. ورأى أن المخرج هو الارتقاء على سلم درجاته هي: الوعي بأبعاد مشكلة انعدام الوعي ببصمة الأمة الحضارية، وتوسيع دائرة ذلك الوعي، ونظرة شاملة على فروع المعرفة، وبيان واقع الفرع الدراسي الحديث، وتحري العلاقة بينه وبين التراث الإسلامي، وإعداد مختارات من التراث في كل فرع معرفي، ونقد مساهمات التراث، وتحديد أهم مشكلات الأمة والبشرية، والبحث في بدائل المعالجة، وإعداد الكتب الدراسية في التخصصات المختلفة، ونشر ناتج أسلمة العلوم، وعقد سلسلة من المؤتمرات والحلقات العلمية لتقويم ذلك الناتج والتدريب عليه.[1]

فما الذي أنجزناه من تلك الوصفة الفاروقية بعد مرور قرابة ثلاثين سنة على تقديمه لها؟

لا بدّ من القول في بداية الإجابة على هذا السؤال أن الوصفة الفاروقية لها حد أدنى يمثل الضرورى، ولكن سقفها لا نهائي. بتعبير آخر، فإن هذه الوصفة طريقة للإقلاع الحضاري، ولاستعادة أسباب التمكين والعزة. وقبلة هذه الوصفة هي التوحيد الخالص بكافة مضامينه التحريرية المصدق عليها والمهيمن عليها بالقرآن الكريم، من أمة عابدة مكرمة مكلفة، في كونٍ كل ما فيه يسبح بحمد الله، بمنهاجية معرفية قرآنية ضابطة لتفاعلها مع الشهادة ومع الغيب في دوائر تحقيق

---

(١) الفاروقي، **أسلمة المعرفة: المبادئ العامة وخطة العمل**، مرجع سابق، الفصل الرابع. انظر أيضاً:
- الفاروقي، إسماعيل راجي. "الإسلام والمدنية، قضية العلم"، ترجمة: صلاح الدين حنفي، **مجلة المسلم المعاصر**، أغسطس١٩٨٣م، ص٥-٢١.
- الفاروقي، إسماعيل راجي. "أسلمة المعرفة"، ترجمة: فؤاد حمودة، وعبد الوارث سعيد، **مجلة المسلم المعاصر**، عدد٣٢، ١٩٨٢م، ص٩-٢٣.

العقيدة، وتحقيق العمل الصالح، وتحديد الحلال والحرام، والصواب والخطأ، والحسن والقبيح.

وهذه العملية مستديمة بطبيعتها، ولا سقف لمعراجها في إخراج البشرية من وضعية العوز، ومن وضعية الارتقاء المادي المصحوب بالانحطاط القيمي إلى مصاف العمران والتزكية المتناغمة مع الآيات الربانية في الآفاق وفي الأنفس.

بيد أن ميزان الحساب توجد في إحدى كفتيه إسهامات كثيرة، حيث جرت مياه كثيرة في نهر إسلامية المعرفة في العقود الثلاثة الأخيرة ارتفع بها صرح البناء المعرفي التوحيدي بالتضافر بين المعهد العالمي للفكر الإسلامي والكثير من مراكز البحوث والجامعات. وتعانق النقد المعرفي مع البناء المعرفي على الطريق إلى استعادة الأمة الواحدة الشاهدة. ونظمت في رحاب مراكز المعرفة الإسلامية ندوات ومؤتمرات وحلقات تدريبية عربية جامعة. وشرع بعض شباب جيل شباب إسلامية المعرفة في إنشاء منتديات معرفية.

أما في الكفة الثانية فلا يزال الواجب المعرفي ثقيلاً للغاية، سواء للتخلص من تركة الماضي من الغبش الوافد والمتكلس الموروث، أو لامتلاك أسباب السباحة في بحر العولمة والكيد الغربي المعاصر. ولا تزال العلوم الاجتماعية مستنقعاً تستبعد من سياقه القيم وتعشش فيه التفسيرات السطحية الجزئية لظواهر الإجتماع الإنساني، والغبش المفاهيمي والأفكار الميتة والفتاكة. ولا تزال الحركة الإسلامية غير متناغمة مع الإنتاج المعرفي، والتفاعل بين الفكر والحركة يسيرا على أقل تقدير. وتأخر صدور مجلة إسلامية المعرفة اثنتي عشرة سنة بعد إنشاء المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ولم يتم بعد إنشاء مركز لبحوث الأمة. وفي حين حدث تقدم مشهود في الدراسات القرآنية، فإن الدراسات المتعلقة بالسُّنة ما زالت تراوح مكانها. وتوقفت مشروعات بدأت دون خطة محددة لتكشيف التراث وتصنيفه وتقريبه. ولم ننجز بعد حصراً لأهم المصادر في كل فرع معرفي حديث، ناهيك عن إعداد مستخلصات لها بعدة لغات. ولا تزال الازدواجية في

نظام التعليم وفي القوانين سائدة في عالمنا الإسلامي. ولم تنجز الجماعة العلمية بعد موسوعة معارف إسلامية توحيدية خالية من الغبش ومن الخلافيات. ولم ينطلق بعد مشروع جاد لتعريف الأمة بمفكريها، ولتحقيق التواصل بين مفكري الأمة في التخصص الواحد، وفي كل التخصصات.

فهل تمهد هذه الدراسة لبناء قناعة بأن أمر التغيير السننى الرشيد والفعال كله، مرهون بحركة تغيير إصلاحية نابعة منها تنقب فى عمقها، وتتحلى بالوسطية، وتعير الجوانب الروحية اعتباراً أكبر، وتعاير البعد المادى ذاته من مرجعية توحيدية، وتتجاوز مستوى العمل النخبوى العشوائي، إلى مستوى السعي المحتسب المخطط لتأهيل الأمة كلها لتمثل مشروع الإصلاح الحضارى؟

وهل نقف على عتبة بناء جدول أعمال بحثي للجماعة المعرفية العلمية في عالمنا الإسلامي مستلهماً من تلك الرؤية الفاروقية، نستكشف به ذاتنا الحضارية، ونستعيد به دور خير أمة أخرجت للناس؟

لقد سبق لأمتنا أن مكنت أوروبا بترجمة التراث المعرفي اليوناني من استعادة بعثها الحضاري. والسؤال: ألم يحن الوقت لأن نستعيد نحن بعثنا الحضاري بالعودة إلى تراثنا عبر المفاتيح التوحيدية التي قدمها لنا علامتنا الفاروقي؟

obeikan.com